

يعمل بالصيد وحده في مركب شراعي صغير في مجرى الخليج، قصة حب ووفاء ربطت بين الصياد العجوز "سانتياجو" والصبي "مانولين" الذي كان يساعده في مهمات الصيد، الانطلاق في البحر وقد أصر الصبي الصغير على مساعدته وإحضار السردين اللزيم للصيد قائلاً إذا كان لا يمكنني أن أصطاد معك فلا أقل من أن أخدمك بطريقة ما. وودعه الصبي متمنياً له حظاً سعيداً. ثبت العجوز مجدافيه في موضعهما وانطلق خارجاً من المرفأ تحت جناح الظلام عاقد العزم على التوغل في البحر بعيداً كان سانتياجو يؤمن أنه خلق في هذه الحياة من أجل مهمة محددة وهي أن يكون صياداً، وبالفعل كان صياداً ماهراً يتمتع بخبرة واسعة في أنواع الأسماك المختلفة وأساليب الصيد وفنونه وأحوال البحر، قال عن نفسه ذات مرة "ربما لم يكن خليفاً بي أن أكون صياداً ولكنني ولدت من أجل تلك المهنة". فكل يوم هو يوم جديد، ولكنني أؤثر إذا عملت عملاً أن أتقنه، ظل العجوز يراقب البحر والكائنات البحرية التي تمر عليه، وحركة الطيور التي تدل كثرتها في مكان ما على تجمع الأسماك وتمثل عون كبير له، وأثناء ذلك ظفر بإحدى سمكات التونة فاحتفظ بها كطعام يمدّه بالقوة اللازمة. السمكة الضخمة وبمهاره بدأ الصياد في مناورة السمكة برفق وتؤده حتى لا تنطلق هاربة فأرعى لها الحبل حتى تتناول الطعام، وبعد عدة جولات شعر فجأة بثقل كبير فأرعى الحبل الذي انساب الأسفل، وبدأت السمكة في السباحة بثبات مוגلة في البحر قاطرة المركب معها. نذر "سانتياجو" كل ما لديه من طاقة من أجل الثبات والجلد والصبر. مع تقطيعه لسمكة التونة لأكلها وإمداد جسمه بالقوة اللازمة للصمود. ظل العجوز طوال رحلته في مياه المحيط يتذكر الصبي ويتمنى وجوده معه في كل لحظة ليعاونه، خاصة مع اشتداد ثقل الحبل على ظهره وتقلص يده اليسرى وكثرة الجروح التي عانى منها وشعوره بالدوار والضعف من أن لأخر واحتياجه للنوم، ولكن لم ينل كل هذا من عزيمته شيئاً. كان الصياد مصرّاً على اصطياد السمكة رغم الإشفاق الذي شعر به نحوها، ونقرأ جزء من الرواية تتباين فيه مشاعر "سانتياجو" قائلاً: إن السمكة صديقتي أيضاً، لم أر أو أسمع قط بمثل تلك السمكة ولكن لا بد لي من أن أقتلها. ولكن هل هم جديرون بأكلها؟ كلا طبعاً، لا يوجد من هو أهل لتناول لحمها لما أبدته من سلوك رائع ووقار وسمو". ثم سبح في أفكاره متذكراً انتصاره على الزنجي العظيم في لعبة اليد الحديدية في حانة "كاسا بلانكا" فأعطاه ذلك مزيد من القوة، وفي هذه الأثناء تمكن من اصطياد دلفين احتفظ به حتى يأكله ويمدّه بالطاقة اللازمة للصمود. هجوم مفاجئ حاول العجوز أن يغفو قليلاً بعد أن أمسك بالحبل بإحكام بيده اليمنى وألقى بثقل جسده كله فوقها ملتصقاً بخشب المركب وحرك الحبل المشدود على كتفه قليلاً وضغط عليه بيده اليسرى بكامل قوته حتى إذا استرخى في نومه يظل قابضاً بقوة على الحبل ومتحكم في السمكة. استغرق العجوز في النوم إلا أنه استيقظ فجأة على هجوم مباغت من السمكة التي أخذت تقفز من المحيط قفزات متوالية وسريعة انحنى إلى الخلف وجذب الحبل بشدة فألهب ظهره وتحملت يده اليسرى العبء الناجم من الحبل المشدود وهو يحز بها حزاً مؤلماً دامياً، ومع قفزات السمكة انكفأ الصياد على وجهه، ثم مالبت أن نهض ثانية في عزم وتصميم على قهرها، وعندما هدأت قليلاً سبحت مع التيار بعد أن أصابها التعب. وبدأت السمكة تحوم وبدأ هو في جذب الحبل برفق، ظل الصياد في مناورات التي أنهكتها معها وكاد أن يظفر بها إلا أنها ما لبثت أن اعتدلت وراحت تسبح ببطء مبتعدة فحدثها قائلاً: إنك تقتليني أيتها السمكة ولكن ذلك من حقك، إنني لم أر قط سمكة أضخم ولا أجمل ولا أنبل منك أيتها الأخت، وقفزت قفزة هائلة ثم سقطت معلنة انتصار الصياد العجوز. هجوم مكثف مهمة جديدة أُلقيت على كاهل "سانتياجو" وهي حماية السمكة من أسماك القرش التيللشائى لم يكن هناك من يساعده فجذب المركب للساحل وخلع الصاري وطوى الشراع عليه وحمله على كتفه وتحرك باتجاه المنزل ثم توقف وتطلع للخلف فشاهد من خلال الأضواء المنعكسة ذيل السمكة الضخم في وضع رأسي خلف مؤخرة المركب ورأى عمودها الفقري ابيض عارياً وكتلة الرأس القاتمة بمنقارها البارز. وكان كل ما بينهما مجرداً من اللحم.